

اتجاهات البلاغة في تفسير البحر
المحيط لأبي حيان الأندلسي

د. سعد محمد علي التميمي

كلية التربية - الجامعة المستنصرية

المخلص

لم يقتصر التفسير على الطرق المثلى لقراءة القرآن ، و شرح ألفاظه وتفسير وتوضيح معانيه وما اشتملت عليه من أحكام شرعية، بل تضمن جهودا متنوعة سهلت تفاعل الجمهور مع القرآن ،ومن هذه الجهود: النحوية واللغوية والبلاغية والصرفية والدلالية ،ولمّا كان القرآن الكريم من أهم الأسباب التي أسهمت في نشأة البلاغة العربية، فمن الطبيعي ان تشكل البلاغة اداة ثابتة لدى معظم المفسرين رغم تفاوت طبيعة هذه الاداة من مفسر لآخر، فعند الزمخشري تعد اداة رئيسية الا أنها عند أبي حيان الأندلسي في(البحر المحيط) تأتي بعد الجهود النحوية والغوية ، اذ لم يكن الجهد البلاغي مميّزا لاعتماده بشكل كبير على الزمخشري في الغالب الا ان هذا الجهد لا يمكن اهماله لأنه يستحق الدراسة فهو يعكس ثقافة أبي حيان واهتمامه وتأثره بثقافة عصره، فضلا عن تحديد طبيعة هذه الجهد وسماته ، وبعد استقرار الجهد ارتأينا أن يتناوله البحث في اتجاهين تضمن الأول طريقتين تقوم الأولى على ذكر المصطلحات البلاغية دون الخوض في مفهوم هذا المصطلح أو تحليل الآية التي يرد فيها ، وقد هيمنت هذه الطريقة على معظم الجهد البلاغي في التفسير، وفي الثانية كان أبو حيان يقف قليلا عند بعض المصطلحات البلاغية فيعرف بها أحيانا ، ويوضحها بشيء من التفصيل أحيانا أخرى ، ولم تأخذ هذه الطريقة حيزا كبيرا في التفسير ، أما الاتجاه الثاني فقد حاول فيه أبو حيان أن يحل بعض المظاهر البلاغية التي يقف عندها في بعض الآيات مقتربا أحيانا من منهج الجرجاني في تأويل اعجاز القرآن الكريم من خلال تحليله البلاغي الشامل ، و قد ابتعدنا عن المنهج التقليدي الذي يقوم على جمع الجهد من خلال العلوم الثلاثة للبلاغة دون تقييمه وبيان المنهج الذي اتبعه المفسر في تناول القضايا البلاغية في القرآن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة :

لما كانت علوم العربية قد وجدت لفهم القرآن الكريم وتفسيره وبيان إعجازه ، ولما كان التفسير يقوم على البحث في كيفية قراءة القرآن بالطريقة الصحيحة والكشف عن مدلولات ألفاظه وأحكامها الإفرادية والتركيبية ، فلا بد أن يحوي التفسير جهوداً بلاغية ونحوية ولغوية، فضلاً عن الجهود الخاصة بعلوم القرآن من قراءات وأسباب نزول ، ولكن هذه الجهود تتفاوت من مفسرٍ إلى آخر فتارة نجد مفسراً يهتم باللغة وآخر بالنحو وثالث بالبلاغة ورابع بالقراءات ، ولما كان تفسير (البحر المحيط) لأبي حيان الأندلسي قد تضمن جهوداً متنوعة تستحق الدراسة مثل النحو والدلالة والبلاغة ، رأينا أن ندرس الجهود البلاغية فيه لنبين اتجاهاتها ، وبعد الاستقراء وجدناها كبيرة إذ تناول أبو حيان كثيراً من القضايا البلاغية ، معتمداً ، في الغالب على من سبقه من مفسرين وبشكل خاص الزمخشري وابن عطية ، ولما كان بحثنا يقوم على دراسة هذا الجهد وتحليله لا جمعه ووصفه ، أو تقسيمه بحسب العلوم الثلاثة للبلاغة على الطريقة التقليدية، فقد تناولناه في اتجاهين ، يقوم الأول على ذكر المصطلح البلاغي المؤظف في القرآن وتعريفه وبيان أهميته دون تحليل الآية التي تضمنته، وهذا الاتجاه بدوره يتضمن طريقتين ؛ الأولى يكتفي فيها أبو حيان بذكر المصطلح بشكل مطلق دون التعريف به كأن يقول في هذه الآية استعارة أو مجاز أو طباق أو غير ذلك ، دون التعريف بالمصطلحات أو تحديد الموضع الذي تتحقق فيه ، بينما تقوم الطريقة الثانية على تحديد المصطلح والتعريف به وبيان أهميته ، أما الاتجاه الثاني فيقوم على ذكر المصطلح وبيان كيفية عمله مع الفنون البلاغية الأخرى، فضلاً عن دور السياق في صياغة المعنى ، ويكون ذلك كله من خلال التحليل الذي يعتمد فيه أحياناً على الجهود السابقة ، وأحياناً أخرى على جهده الخاص، وقد مهدنا لهذه الدراسة بتعريف موجز بأبي حيان الأندلسي وبكتابه "البحر المحيط" فضلاً عن بيان الجهد البلاغي فيه، وقد ختمنا البحث بخاتمة ذكرنا فيها أهم النتائج التي توصلنا إليها من خلال البحث .

أبو حيان الأندلسي

هو أثير الدين أبو عبد الله محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي الغرناطي الحياتي

المشهور بأبي حيان ، وقد ولد في عام ٦٥٤هـ وتوفي في عام ٧٤٥هـ (١)

وقد قرأ أبو حيان القرآن الكريم على عدد من العلماء منهم الخطيب عبد الحق بن علي والحافظ أبو علي بن أبي الأحوص ، وقد حضر حلقات الكثير من العلماء في بلاد الأندلس وأفريقيا ، ودرس القراءات على يد عدد من العلماء منهم: عبد الناصر بن علي المربوطي في الإسكندرية ، وأبو طاهر إسماعيل بن عبد الله المليجي في مصر ، وقد درس كتب الأدب واللغة والنحو والبلاغة من خلال ملازمته لعدد من العلماء مثل الشيخ بهاء الدين بن النحاس الذي سمع عليه كثيراً من كتب الأدب ، وقد كان أبو حيان شغوفاً بالعلم والأدب واللغة وكثير المتابعة وغزير الإنتاج (٢).

وإضافة إلى علمه بالقرآن الكريم وقراءاته وعلومه وأسلوبه ودراسته للأدب وفنونه فقد كانت له معرفة واسعة باللغة وعلومها من نحو وصرف وبلاغة ، وقد عكس ذلك تفسير البحر المحيط ، إذ كان النحو من أهم القضايا التي وقف عندها ، (٣) فعرض الكثير من الآراء وناقشها ، و لم تلغ الجهود النحوية جهوداً أخرى كانت حاضرة وتستحق الدراسة والتحليل مثل الجهود الدلالية والبلاغية .

تفسير البحر المحيط ومنهج أبي حيان فيه :

يعد البحر المحيط من التفاسير المهمة إذ تضمن جهوداً متنوعة وظفها أبو حيان في التفسير الذي يراد به " البحث في كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبية " (٤)، وقد اعتمد على معظم المفسرين الذين سبقوه وكان غالباً ما يذكر آراء اثنين منهم بين الحين والآخر ، وهما الزمخشري والقاضي المفسر بن عطية ، ويناقد آراءهما بشكل مستفيض ويرد عليهما أحياناً لأسباب فكرية كما هو الحال مع الزمخشري ، ويعد هذا التفسير المرجع الأول والأهم لمن يريد أن يقف على وجوه الإعراب لألفاظ القرآن الكريم إذ ان الناحية النحوية هي أبرز ما فيه من البحوث التي تدور حول الآيات ويعود السبب في ذلك إلى ميله لهذا العلم لما له من أهمية كبيرة في دراسة العربية (٥).

وإذا كانت الجهود النحوية قد هيمنت على تفسيره فإنه لم يهمل الجهود الأخرى مثل اللغة وأسباب النزول والقراءات الواردة وتوجيهها إذ كان يقف عند المعاني اللغوية للمفردات ودور السياق في تغيير دلالاتها فضلاً عن ذكره لأسباب النزول ، اما الظواهر البلاغية في القرآن فلم تغب عن التفسير فقد حازت على اهتمامه متأثراً بمن سبقه من العلماء ، حتى تضمن التفسير جهداً بلاغياً واضحاً ، ولم تكن طريقة توظيف هذه الجهود عشوائية بل كانت منظمة ، اختارها أبو حيان وسار عليها في التفسير كله وقد ذكرها في المقدمة بقوله: " وترتبي في هذا الكتاب أنني بدأت أولاً بالكلام على مفردات الآية التي أفسرها لفظة لفظة ، فيما يحتاج إليه من اللغة والأحكام النحوية التي لتلك اللفظة قبل التركيب ، وإذا كان للكلمة معنيان أو معانٍ ذكرت ذلك في أول موضع فيه تلك الكلمة ، لينظر ما يناسبها من تلك المعاني في كل موضع تقع فيه فيحمل عليه ثم اشرع في تفسير الآية ذاكراً سبب النزول إذا كان لها سبب ، ونسخها ومناسبتها ، وارتباطها بما قبلها حاشداً فيه القراءات ، شاذها ومستعملها ، ذاكراً توجيه ذلك في علم العربية ناقلاً أقاويل السلف والخلف في فهم معانيها ، متكلماً عن جليها وخفيها ، بحيث أني لا أغادر منها كلمة وإن اشتهرت حتى أتكلم عليها ، مبدئياً ما فيها من غوامض الإعراب ودقائق الآداب ، من بديع وبيان ، مجتهداً أني لا أكرر الكلام في لفظ سبق ولا في جملة تقدم الكلام عليها ، ولا في آية فسرت بل أذكر في كثير منها الحوالة على الموضع الذي تكلم فيه على تلك اللفظة أو الجملة أو الآية وإن عرض تكرير بمزيد فائدة ، ناقلاً أقاويل الفقهاء الأربعة وغيرهم في الأحكام الشرعية مما فيه تعلق باللفظ القرآني محيلاً على الدلائل التي في كتب الفقه ، وكذلك ما نذكره من القواعد النحوية أحيل في تقريرها والاستدلال عليها على كتب النحو ، وربما أذكر الدليل إذا كان الحكم غريباً أو خلاف مشهور ما قال معظم الناس بادئاً بمقتضى الدليل وما دل عليه ظاهر اللفظ مرجحاً له ذلك ما لم يصدر عن الظاهر ما يجب إخراجه به عنه متكباً في الإعراب الوجه التي تنزه القرآن عنها ، مبيناً أنها مما يجب أن يعدل عنه وانه ينبغي أن يحمل على أحسن إعراب وأحسن تركيب ، إذ كلام الله تعالى أفصح الكلام ، فلا يجوز فيه ما يجوز النحاة في شعر الشماح والطرماح وغيرهما من سلوك التقادير البعيدة والتراكيب الفلقة والمجازات المعقدة ، ثم اختتم

جملها احسن تلخيص وقد ينجز معها ذكر معان لم تتقدم في التفسير ، وصار ذلك انموذجاً لمن يريد أن يسلك ذلك فيما بقي من سائر القرآن^(٦).

فهو يرسم منهجه الذي يقوم على علم القراءات الذي يحدد من خلاله كيفية النطق وعلم اللغة الذي يبين من خلاله مدلولات الألفاظ الافرادية والتركيبية فضلاً عن البلاغة التي يبين من خلالها إعجاز القرآن .

الجهد البلاغي في تفسير البحر المحيط :

ان استقراء الجهود البلاغية في التفسير يكشف حجمها الذي لا يقل عن الجهود النحوية إلا أنها في الغالب تقوم على ما ينقله أبو حيان ممن سبقوه، وبشكل خاص الزمخشري ، و مما يميز هذه الجهود الاهتمام الواضح والكبير بالمحسنات البديعة اللفظية والمعنوية ، نتيجة لشيوعها في عصره، بعد أن طال البلاغة الفلسفة والمنطق، فابتعدت عن التحليل ومالت نحو التقسيم والتحديد لتغدو علماً تعليمياً، بعد أن كانت فناً جمالياً ، وقد كان أبو حيان يقف عند الظواهر البلاغية في القرآن الكريم فيذكر آراء العلماء فيها، ثم يناقش هذه الآراء ، وقد كان لأبي حيان طرق عدة في معالجة موضوعات البلاغة ، فتارة يذكر المصطلح البلاغي دون التعريف به أو تحليل الآية التي يرد فيها، وتارة يقف عند المصطلح ويعرف به ويبين أهميته ووظيفته، وتارة أخرى يذكر المصطلح ثم يحلل الآية بشكل كامل ليوضح كيفية تكاتف عناصر البلاغة في تشكيل الجمال البياني المعجز في الآية وهنا يقترّب من عمل الجرجاني .

تحديد المصطلح البلاغي :

لقد انصبت معظم الجهود البلاغية في التفسير على تحديد المصطلح البلاغي ، بسبب اهتمام أبي حيان بقواعد الإعراب دون الخوض في معاني النحو، بعد أن مالت العلوم في عصره وبخاصة البلاغة نحو التحديد والتقسيم فأصبحت تهتم بالقواعد البلاغية دون التحليل ، ومما يؤكد ذلك اهتمامه الكبير بالمحسنات التي وظفت في القرآن ، فضلاً عن ميله باستمرار إلى أسلوب الاختصار الذي يقوم على التحديد الموجز، ولعل اختصاره لتفسير البحر المحيط بتفسيراً لنهر الماد من البحر أول مظاهر هذا الأسلوب يضاف إلى ذلك اختصاره لجهده البلاغي الذي يعرضه خلال تفسير الآيات بين الحين والآخر بمجموعة نقاط فيقول : " فذكروا في هذه الآية

من ضروب الفصاحة" (٧) ، وهذا الاختصار يدفع نحو التلميح بالمصطلح دون دراسته داخل السياق وبيان وظيفته مما يجعل الجهد البلاغي ذا بعد تعليمي .

وهذا الاهتمام بالمصطلح دون التحليل لم يقتصر على الجهد البلاغي بل طال الجهود الأخرى مما جعل هذه السمة تطبع منهج أبي حيان ، فهو يقف أولاً عند دلالة المفردة محاولاً الوصول إلى الدلالة المقصودة ومن ثم ينتقل إلى تفسير الآية وسبب نزولها والقراءات التي قرئت بها وبعد ذلك يوضح ما فيها من غوامض الإعراب وينتهي ببيان ما فيها من فنون بيانية وبديعية (٨) ، وبذلك يكون قد فصل بين هذه الجهود على الرغم من شدة تلاحمها مثلما هو موجود بين اللغة والنحو والبلاغة ويتمثل ذلك في علم المعاني الذي يمثل ساحة مشتركة بين هذه العلوم تتضح من خلالها جماليات النص ومستويات بلاغته ، وهو ما فعله الجرجاني في كتابه (دلائل الإعجاز) من خلال نظرية النظم وأفاد منه بشكل كبير الزمخشري في تفسيره ، ولما كان إعجاز القرآن ليس في حسن استعارته فقط ولا حتى تشبيهاته فقط ولا جمال الفاظه فقط ولا قوة معانيه فقط ولا في فواصله فقط بل في " النظم والتأليف لأنه ليس من بعد ما أبطلنا أن يكون فيه إلا النظم " (٩) وهذا النظم يتطلب التحليل الشامل للجمل والعبارات التي يتكون منها النص فيدخل في هذا التحليل جميع ما ذكر .

وفي تحديد المصطلح البلاغي ووصفه كانت لأبي حيان طريقتان ، تقوم الأولى على تعيين المصطلح البلاغي وتحديد نوعه بشكل مطلق دون التطرق إلى تعريفه ، وهذا ما وجدناه بشكل كبير جداً ، أما الطريقة الثانية ، فتقوم على تحديد المصطلح ثم بيان مفهومه وأقسامه والوقوف عند أهميته ووظيفته أحياناً وهذا ما وجدناه في جانب من الجهد البلاغي الموجود في التفسير .

أولاً: التحديد المطلق للمصطلح البلاغي

وتقوم هذه الطريقة بذكر ما يرد من فنون بلاغية في آيات القرآن الكريم دون الخوض في مفاهيمها وأقسامها ووظائفها النفعية والجمالية ، وهذه الطريقة لا تسهم في الكشف عن أسرار الإعجاز القرآني ، فلا يكفي أن نقول في هذه الآية أمر خرج للتهديد أو مقابلة أو استعارة لكي نثبت أن فيها إعجاز فالمطلوب أن نبين كيف تعمل هذه الفنون وكيف توظف من أجل صياغة المعنى بطريقة فريدة لا يمكن أن يصل إليها أحد ، وفضلاً

عن ذلك كله فإن مثل هذا الجهد لا يعكس أهمية البلاغة في التفسير والتي أكدها كثير من العلماء بعد أن أُلزموا من يريد تفسير القرآن بالوقوف على البلاغة لما لها من أهمية في معرفة الأسلوب وسلامة الحكم ، إذ أن الوقوف على تمام مراد الحكيم تعالى وما تقدس من كلامه مفتقر إلى هذين العلمين (البيان والمعاني) كل الافتقار ، فالويل لمن يتعاطى التفسير وهو فيها راجل ^(١٠) ، ولعل السبب الرئيس في اقتصار الجهد البلاغي في تفسير البحر المحيط في جانب كبير منه على تحديد المصطلح يعود إلى اهتمام ابي حيان بالدرجة الأولى بالنحو وقواعد الإعراب وآراء النحاة في ذلك وبالقرارات بالدرجة الثانية وجعل البلاغة خاتمة حديثه وتفسيره للآيات القرآنية مما يجعل الكلام فيها يأتي موجزاً وقائماً في أغلب الأحيان على ذكر المصطلح البلاغي فقط ، وفي الغالب يستعين أبو حيان في تحديد هذه المصطلحات بجهود من سبقه من مفسرين وبشكل خاص الزمخشري وابن عطية وهذا ما تؤكد كلمة (ذكروا) التي طالما كررها أبو حيان عند ذكره للفنون البلاغية الموظفة في الآيات القرآنية .

والملاحظ على هذه الطريقة أنها استعملت وبشكل كبير في تحديد مصطلحات علمي المعاني والبيان ، وقد يعود السبب في ذلك إلى ثبات مصطلحات هذين العلمين منذ فترة طويلة على عكس المصطلحات البديعية التي يعد كثير منها حديث النشأة بالنسبة لعصر أبي حيان الذي قد يرى أن مصطلحات علمي المعاني والبيان ترسخت في الأذهان ولا تحتاج إلى تعريف .

ومن الفنون البلاغية التي يمر بها أبو حيان ويكتفي بتحديد نوعها ، الاستعارة وهذا ما نجده في تفسير لقراءة (وَأَيُّكَ نَسْتَعِينُ)^{١١} بالياء مبيناً للمفعول ، إذ يرى إن هذه القراءة مشكلة لأن إياك ضمير نصب ولا ناصب له ، وتوجيه هذه القراءة أن فيها استعارة والتفاتاً ، فالاستعارة إحلال الضمير المنصوب محل الضمير المرفوع فكأنه قال أنت ثم التفت فأخبر عنه أخبار الغائب، ولما كان إياك هو الغائب من حيث المعنى قال يعبد ، فأبو حيان عندما أراد أن يجد تخريجاً للقراءة المذكورة عللها بالاستعارة^{١٢} دون تحديد نوع الاستعارة أو تعريفها رغم أنه يذكرها للمرة لأولى في التفسير ، والاستعارة هنا بحسب توجيهه للقراءة تصريحية تبعية كما يحددها علماء البلاغة^{١٣} ، ويتكرر ذكر الاستعارة في مواضع عديدة يذكرها أبو حيان بشكل مطلق كما في تفسيره لقوله تعالى

(فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ) ^{١٤}، إذ يرى أن هذه الآية تتضمن استعارة إذ استعار السير على الأقدام في قوله "سِيرُوا" لسير الفكر ^{١٥}، ولم يحدد نوع الاستعارة وما هي وظيفتها، برغم أن هذه الاستعارة استعير فيها المحسوس "السير على الأقدام" إلى المعقول وهو سير الفكر أي التأمل وفي مثل هذه الاستعارة يكون المعنى المراد التعبير عنه قريباً من السامع كونه يأخذ صورته حسية والاستعارة هنا تصريحية رغم أن الكلام يحتمل الحقيقة أيضاً، ومن الاستعارات التي يذكرها بشكل مطلق دون الخوض في جزئياتها ما نجده في قوله تعالى (وَصَافَتْ عَلَيْهِمُ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ) ^{١٦}، إذ يحدد موقع الاستعارة في قوله (وَصَافَتْ عَلَيْهِمُ أَنْفُسُهُمْ) فيرى أن الهم والغم ملأ النفس بحيث لا يسعها سرور فخرجت عن فرط الوحشة والغم ^{١٧}، فلم يذكر أطراف الاستعارة ولا طبيعتها، وقد جاءت الاستعارة لتسهم في رسم ملامح الإعجاز من خلال الإسناد حيث أسند الفعل (صاف) إلى النفس، وهذا الأسلوب في التعامل مع الاستعارة وغيرها من المصطلحات دون بيان مفهومها أو تعريفها أشبه بجهود بعض العلماء القدامى مثل أبي عمرو بن العلاء الذي ذكرها دون أن يعرفها في كلامه عن ذي الرمة "ولا أعلم قولاً أحسن من قوله "وساق الثريا في ملاءته الفجر" فصير للفجر ملاءة ولا ملاءة له وإنما استعارة هذه اللفظة وهو من عجيب الاستعارات ^{١٨} ويذكرها أيضاً الأصمعي وأبو عبيدة ^{١٩}.

ومثلما فعل مع الاستعارة فعل مع التشبيه فعلى الرغم من تعدد أقسامه وتضمن القرآن لمعظمها، فضلاً عما يتضمنه من قيمة بلاغية عالية، إلا أنه كان يكتفي بذكر المصطلح دون الوقوف عنده وتحليله، وقد كان أول ذكر لهذا المصطلح في تفسيره لقوله تعالى (خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) ^{٢٠} إذ يرى أن هذه الآية من باب التمثيل أي التشبيه كقولهم طارت به العنقاء إذا طال الغيبة وكأنهم مثلت حال قلوبهم بحال قلوب ختم الله عليها ^{٢١} وهذه الإشارة مطلقة خالية من التفاصيل، والملاحظ أن أبا حيان يستخدم مصطلح التمثيل والتشبيه بدلالة واحدة، ويستمر في وصفه المطلق للمصطلح في كثير من المواضع كما في تفسير قوله تعالى (لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَبُهُمُ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ) ^{٢٢} فالتشبيه على حد قوله في قوله تعالى (ليقطع طرفاً) إذ شبه من قتل منهم وتفرق بالشيء المنقطع الذي تفرقت أجزاؤه وانخرط نظامه، وهناك تشبيه آخر في الآية في قوله: (فينقلبوا خائبين) إذ شبه رجوعهم بلا ظفر ولا غنيمة بمن أمل خيراً من رجل

أمله فأحقق أمله وقصده^{٢٣}، والحقيقة أن ابا حيان خلط هنا بين التشبيه والاستعارة ففي الآية استعارة إذ أن التشبيه يتطلب ذكر طرفيه وفي التشبيه الأول الذي يذكره أبو حيان لا يوجد سوى المشبه به وهو الفعل يقطع أما المشبه وهو القتل والتفريق فهو محذوف وبذلك يكون التعبير استعارة تصريحية وكذلك الحال في الختم فهو استعارة تصريحية تبعية إذ شبه منع الهداية إلى قلوب الذين كفروا بالختم والطبع على المحسوس ، وهذا التأرجح بين التشبيه والاستعارة وعدم التفريق الواضح بينهما نجده في مكان آخر من خلال تفسيره لقوله تعالى (أَتَأْتُمُونَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا)^{٢٤} ، إذ يذكر رأيين في هذه الآية ، الأول يرى فيها استعارة إذ جعل ماهلك من الزرع بالآفة قبل أوانه حصيداً لعلاقة ما بينهما من الطرح على الأرض ، اما الرأي الثاني فهو جواز أن يكون تشبيهاً بغير الإداة والتقدير فجعلناها كالحصيد ، ولم يرجح أبو حيان أيّاً من الرأيين^{٢٥}، ولو كان قد وقف على تعريف التشبيه وحاول توضيحه لاكتفى بالرأي الثاني لأن الآية تتضمن تشبيهاً بليغاً خالياً من الإداة ووجه الشبه .

ومن موضوعات علم المعاني اهتم أبو حيان بالمعاني المجازية للأساليب الخبرية والإنشائية بشكل كبير، ولم يهمل موضوعات الإسناد والقصر والفصل والوصل والتقديم والتأخير والإيجاز والإطناب، التي اكتفى بالإشارة العابرة إليها دون ذكر مفاهيمها ووظائفها ، وعلى الرغم من أن هذه الموضوعات تقوم بشكل كبير على النحو الذي اهتم به كثيراً إلا أنه لم يحاول أن يوظف النحو لدراسة دلالات التراكيب بشكل عميق .

ويقف ابو حيان عند المعاني المجازية لبعض الأساليب الخبرية في تفسيره لقوله تعالى (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)^{٢٦} وقوله تعالى (ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ)^{٢٧} وقوله تعالى (وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)^{٢٨} ففي الآية الأولى يري أبو حيان أن الخبر يخرج لمعنى الأمر، أما الآية الثانية فالخبر "لا ريب" معناه الطلب وهو النهي، وفي الآية الثالثة يخرج الخبر للوعيد والتهديد ، ويطلق أبو حيان مصطلح (تلوين الخطاب)^{٢٩} على خروج الخبر والإنشاء للمعنى المجازي، وأحياناً يستعمل هذا المصطلح لوصف تغير الأسلوب من مخاطب إلى آخر كأن يخاطب أهل الكتاب ومن ثم المشركين ، ويشير الى أسلوب الاستفهام في تفسيره قوله تعالى (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)^{٣٠} إذ يؤيد أبو حيان ما ينقله عن سبقة وهو ان الاستفهام يخرج للإنكار والتوبيخ^{٣١} ويضرب مثلاً في التوبيخ الذي يخرج إليه النهي وهو قول أبي الأسود الدؤلي :

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

ومن المواضع الأخرى التي يقتصر الجهد البلاغي فيها على تعيين المصطلح دون توضيح مفهومه تفسيره لقوله تعالى (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا) ^{٣٢} فهذا الاستفهام برأي أبي حيان يخرج إلى التوبيخ والتقريع والإشارة بهؤلاء إلى أمة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ^{٣٣} دون أن يبين ما أضافه هذا الخروج إلى الكلام من مسحة جمالية وبلاغية عالية لا يمكن الوصول إليها ، ومن الفنون البلاغية التي يكثر توظيفها في القرآن الكريم ولأسباب عديدة يذكرها أبو حيان دون التعريف بها، التكرار كما في تفسيره لقوله تعالى (فَوَيْلٌ لِّمَنْ كُتِبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لِّمَنْ كُتِبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لِّمَنْ كُتِبَتْ أَيْدِيهِمْ) ^{٣٤} فيكتفي بقوله وهذا التكرار من أوجه البلاغة ^{٣٥} فلم يبين أنه أحد صور الإطناب وقد استوجبه السياق للتنبيه على الجرم الذي كانوا يقتربونه ، وقد تعرض لهذا النوع من الإطناب عدد كبير من النقاد والبلاغيين ^{٣٦} وهناك مواضع كثيرة يرد فيها مثل هذا التكرار فلا يكون تعليق أبي حيان إلا أنه أوجه البلاغة كما في تفسيره لقوله تعالى (وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا) ^{٣٧} وهو إطناب بالتكرير غرضه التريديد ^{٣٨} ومن أقسام الإطناب الأخرى التي يذكرها دون ردها إلى الإطناب والاكتفاء بالإشارة إلى أنها أحد أوجه البلاغة، الإيضاح بعد الإبهام كما في تفسيره لقوله تعالى (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ) ^{٣٩} إذ يكتفي بوصفه تكرارا ويقصد كلمة "صراط" يدعي انه للإيضاح بعد الإبهام ^{٤٠}، والحقيقة أن الإيضاح لم يكن بتكرار كلمة الصراط فقط بل معلقاتها فبعد ذكر الصراط الأولى مع صفتها "المستقيم" جاء ببديل من هذه الصراط وهي كلمة "صراط" ومنتهقاته وهو اسم الموصول الذي أضيفت إليه (الذين) وصلته (أنعمت عليهم) وكذلك قوله (غير المغضوب عليهم) وكلمة الضالين المعطوفة على (المغضوب عليهم).

ومن الموضوعات الأخرى المهمة من علم المعاني التي لم يفصل أبو حيان فيها القول (الفصل والوصل) ، الذي يراه الجرجاني من أسرار البلاغة ومما لا يأتي تمام الصواب فيها إلا الأعراب الخالص والأقوام الذين طبعوا على البلاغة وأوتوا فناً من المعرفة في نوق الكلام هم أفراد ومن أهميته جعل حداً للبلاغة ^{٤١} وقد وقف الجرجاني عند بعض الآيات القرآنية وبين كيف تعمل آلية الفصل والوصل مع بقية الفنون البلاغية

لتحقيق النظم المعجز، ويسمي أبو حيان الفصل والقطع إذ يذكر في تفسيره قوله تعالى (لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ) (يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْتُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ) ^{٤٢} أن هذه الآية تضمنت الوصل والقطع في قوله (لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ) ، وفي هذه الجزء من الآية فصل أو قطع ^{٤٣} كما يسميه أبو حيان أما الوصل فهو في قوله "ويأمرؤن" و "وينهون" ، ويذكر أبو حيان الحذف وكان تناوله له ينصب ضمن إطار النحو ، وهذا ما جعله لا يربط بينه وبين الإيجاز في معظم الأحيان ، ففي تفسيره قوله تعالى (عَبْرَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ) ^{٤٤} ، يرى أن هناك حذف للكلمة "صراط" المضافة في الأصل إلى المغضوب عليهم وإلى الضالين والتقدير غير صراط المغضوب عليهم ولا صراط الضالين ^{٤٥} ، وعلى الرغم من أن هذا يعد من آيات الإعجاز القرآني الخاص بالإيجاز إلا أنه لم يصرح به ، وفي باب حذف أكثر من جملة يقف عند قوله تعالى (قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُغَنِيَ أَشْكُرَ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيَ عَنِّي كَرِيمٌ) ^{٤٦} ويقدر الجملة المحذوفة بقوله "فدعا الله فاتاه به فلما رآه أي عرش بلقيس" ^{٤٧} ، ويقف أبو حيان أيضاً عند التقديم والتأخير فيكتفي بذكر المصطلح دون أن يوضح وظيفته وما يضيفه على النص القرآني مثلما فعل البلاغيون والمفسرون من قبل ومن الآيات التي يرى فيها تقديماً وتأخيراً قوله تعالى (يَا أَبَتِ إِنَّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا) ^{٤٨} فيرى في هذا الكلام تقديم وتأخير وتقدير الكلام عنده "أني أخاف أن تكون ولياً في الدنيا للشيطان فيمسك في الآخرة عذاب من الرحمن" ^{٤٩} بينما يرى آخرون أن تأويلها يصيبك عذاب من جهة الله سبحانه لإصرارك على الكفر (فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا) أي تكون موكولاً للشيطان وهو لا يغني عنك شيئاً ^{٥٠} ، وينقل تعليل الزمخشري للتقديم في قوله تعالى (أَرَاغِبُ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ) ^{٥١} إذ يرى أن الله عز وجل قدم الخبر على المبتدأ لأنه كان أهم عنده وفيه تعجب وإنكار ، فهذا التعليل لم نجده عند أبي حيان ، الذي يرى أن راغب مبتدأ وأنت فاعل لاسم الفاعل سد مسد الخبر ^{٥٢} والذي قصده الزمخشري تقديم المسند (راغب) الذي كان في الأصل خبر المبتدأ (المسند اليه) الضمير (انت) لكن اهتمام أبي حيان بالقاعدة النحوية جعله ينشغل بقواعد الصنعة دون أن يلتفت إلى ما ينقله عن الزمخشري في القضايا البلاغية ^{٥٣} .

وقد اهتم أبو حيان بشكل واضح بالفنون البديعية فذكر كثيراً منها وفصل بالحديث عن بعض ووقف عند مفاهيمها وأقسامها، وهذا ما ميزه عن سبقة من المفسرين لثبات هذه الفنون في عصره وتشعبها ، لكنه كان يمر أحيانا ببعضها مكتفياً بذكر المصطلح دون التعريف به أو التحقق من وظيفته ، وهذا ما فعله مع السجع في تفسيره لقوله تعالى (وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَاَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَتْرِيذُ الْمُحْسِنِينَ) ⁵⁴ إذ يرى أن السجع يتحقق من خلال كلمتي (رغداً) و (سجداً) وهما سجتان متجانستان لأجلهما أحر "رغداً" على الظرف لمناسبة الفاصلة ، أي أن السجع هنا مقصود ⁵⁵ ، والحقيقة أن السجع هنا لم يقصد لذاته بل خدمة للمعنى الذي أراده الله إذ اباح لهم الأكل وأكد هذه الإباحة بالاستمتاع ⁵⁶ ، ويقف أبو حيان عند فنون أخرى مثل الطباق والمقابلة والمشاكله والتقسيم والجمع والتفريق والمذهب الكلامي والالتفات والتورية والجناس والمبالغة والتناسب فقوله تعالى (حَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَهُمْ عَدَابٌ عَظِيمٌ) ⁵⁷ يرى أن الله جمع القلوب والسمع والأبصار بالختم ، وفي قوله تعالى (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَأَ يُبْصِرُونَ) ⁵⁸ يستوقفه الطباق بين النور والظلمات دون ان يلتفت للتشبيه في هذه الآية ⁵⁹ ، ويذكر المقابلة في قوله تعالى (يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ) ⁶⁰ فالمقابلة تتحقق في قوله (وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ) التي تقابل (وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ) ، دون أن يوضح شروط المقابلة أو ما تؤديه من وظيفة ⁶¹ . ومن الفنون البديعية الأخرى التي مر بها أبو حيان دون بيان مفهومها وتحليل الآيات التي وردت فيها فضلاً عن وظائفها التي أدتها ، الجناس ، إذ ذكر نوعين منه الأول ، المماثل وذلك من خلال تفسيره لقوله تعالى (وَمَنْ يَعْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) ⁶² فالجناس المماثل يتحقق بين الفعلين (يغلل) و (غل) ⁶³ وهذا النوع من الجناس هو الذي يقع بين كلمتين من جنس واحد كأن يكونا اسمين أو فعلين أو حرفين ⁶⁴ ، ومن الآيات الأخرى التي وقف عند الجناس المماثل الموجود فيها قوله تعالى (فَأَنبَأَكُمْ عِمَّا بَعَثَ) ⁶⁵ فالجناس وقع بين الاسمين "غم " الأولى و"غم" الثاني ، فالأولى أراد بما فاتهم من غنيمة والثاني اشرف ابي سفيان عليهم والحديث عن المسلمين في معركة أحد ⁶⁶ وفي هذه الآية آراء عدة يذكرها الطبرسي منها غم بعد غم أي بمعنى واحد أي لا يوجد فيه جناس ⁶⁷ ، أما الجناس المغاير فيشير إليه في قوله تعالى (فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) ⁶⁸ إذ يتحقق حسب رأي

أبي حيان بين الفعل (توكل) والاسم (المتوكلين)⁶⁹ وكذلك قوله تعالى (وَمَا أَهْمَتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ)⁷⁰ ويتحقق الجناس المغاير هنا بين الفعل (يظنون) والاسم (ظن)⁷¹ ويقوم هذا النوع من الجناس على الاشتقاق . ومن الفنون البديعية الأخرى التي حازت على اهتمام أبي حيان وتكرر ورودها في تفسيره دون تحليل مفهومها وفائدتها ،التقسيم ، إذ كان يشير إليه عندما يرد في بعض الآيات القرآنية كما في قوله تعالى (فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ)⁷² إذ يرى أن الله عز وجل قسم آل إبراهيم (ع) فمنهم المؤمنون ومنهم الكافرون الذين صدوا عن التوحيد ، وكذلك⁷³ قوله تعالى (وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ)⁷⁴ إذ اكتفى بالإشارة إلى التقسيم الموجود في هذه الآية والذي قسم به الله عز وجل حال الحجارة ، فلم يربط أبو حيان بين التشبيه الموجود في هذه الآية والتقسيم الذي أكد صفة الغلظة والقسوة التي وصف بها الله عز وجل قلوب بني اسرائيل ، وكذلك الحال قوله تعالى (وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرُبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُؤْسِدِينَ)⁷⁵ إذ يرى أن فيها تقسيم في الكفار الباقين على كفرهم فمنهم من يؤمن به باطناً ويعلم أنه حق ولكنه كذب عناداً ومنهم من لا يؤمن به لا باطناً ولا ظاهراً اما لسرعة تكذيبه وكونه لم يتدبره إما لكونه نظر فيه معارضته الشبهات وليس عنده من الفهم ما يدفعها ، ويرى أيضاً أن الآية قد تحتل التفريق في كلمة الكفار لأنهم ليسوا مستويين في اعتقاداتهم⁷⁶ ومما يذكره أبو حيان ايضاً المبالغة التي يعدها من الفنون البديعية دون بيان الاسس التي تقوم عليها كما في قوله تعالى (فَلَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ)⁷⁷ فإضافة لفظة (لعنة) إلى لفظ الجلالة على سبيل المبالغة⁷⁸ ومن المصطلحات التي يكتف بالاشارة اليها المذهب الكلامي الذي يسميه أحياناً بالاحتجاج النظري كما في قوله تعالى (قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)⁷⁹ فلم يوضح مفهوم المذهب الكلامي الذي يقوم على تقديم حجة قاطعة ومسلمة عند المخاطب على صحة الدعوى⁸⁰، وهذا الإصرار على ذكر المصطلح دون التحليل والتوضيح في جانب كبير من الجهد البلاغي في تفسير البحرالمحيط يعكس اهتمام أبي حيان الكبير بالنحو والقراءات فضلاً عن أن تفسيره كان يميل إلى الشرح أكثر منه الى التحليل الذي نجده عند الزمخشري ، ولكن هذا لا يعني أن الجهد يخلو من التحليلات البلاغية فهي موجودة لكنها قليلة.

ثانياً : - تحديد المصطلح البلاغي وبيان مفهومه:

ففي باب تعريف المصطلح وتحديد وظيفته نجد أبا حيان يقف طويلاً عند الالتفات ويطلق عليه اسم الانتقال الذي لم نجده عند البلاغيين ، فالانتقال هي العملية التي يقوم عليها الالتفات ، وهو عنده من الفنون البلاغية دون أن ينسبه إلى البديع ، وهو الانتقال من الغيبة للخطاب أو التكلم ومن الخطاب إلى الغيبة أو التكلم ومن التكلم إلى الخطاب أو الغيبة ، والغيبة تارة تكون بالظاهر وتارة تكون بالمضمرة وشرط أن يكون المدلول واحد ألا ترى أن المخاطب بإياك هو الله تعالى ، وبعد تعريفه للالتفات ينتقل بالحديث عن فائدته معتمداً على من سبقه في هذا المجال فيقول "وقالوا فائدة هذا الالتفات إظهار الملكة في الكلام والاعتدال في التصرف فيه ، وقد ذكر بعضهم مزيداً على هذا وهو إظهار فائدة تخص كل موضع" ويشير إلى أنه سوف يقف عند مواضعه في القرآن ويبين هذه الفوائد الخاصة ولكن وقوفه كان عبارة عن إشارة عابرة يذكر فيها المصطلح فقط عدا تفسيره لسورة الفاتحة وما تضمنته من التفات إذ يرى أن فائدة الالتفات في قوله (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) بعد قوله (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) والانتقال من الغيبة إلى الخطاب ، أنه لما ذكر أن الحمد لله المتصف بالربوبية والرحمة والملك، والملك لليوم المذكور اقبل الحامد مخبراً بأثر ذكره الحمد لله المستقر له منه ومن غيره أنه وغيره يعبده ويخضع له وكذلك أتى بالنون التي تكون له ولغيره ، فكما أن الحمد يستغرق الحامدين كذلك العبادة تستغرق المتكلم وغيره ونظير هذا أنك تذكر شخصاً متصفاً بأوصاف جليلة مخبراً عنه أخبار الغائب، ويكون ذلك الشخص حاضراً معك فتقول إياك أقصد فيكون في هذا الخطاب من التلطف عن بلوغ المقصود ما لا يكون في لفظ إياه" ^{٨١} فعلى الرغم من ان كلامه عن الالتفات لم يأت ضمن تحليل متكامل للآية إلا أنه استوفى المصطلح من حيث تحديده وبيان مفهومه وتوضيح فائدته وأهميته .

ويعرف ابو حيان السجع المتوازي من خلال تفسيره لسورة الفاتحة إذ يرى ان السجع المتوازي في قوله تعالى (الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) و (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمَسْتَقِيمَ) وقوله تعالى (سَتَعْرِئُ) و (الضَّالِّينَ) فهو اتفاق الكلمتين الأخيرتين في الوزن والروى ^{٨٢} والحقيقة انه يخلو من السجع المتوازي فهو سجع مطرف بين الرحيم ومستقيم وبين نستعين والضالين لاتفاقهما في الحرف الأخير لعدم اتفاق ما ذكره أبو حيان بالوزن ، وبذلك يكون قد عرف المصطلح

لكنه لم يحسن توظيفه، ومن الفنون البلاغية التي يتحدث عن أقسامها حسن الافتتاح والمطالع، فهي عنده نوعان : حسن وقبيح والحسن ، ظاهر وخفي ، ويقف عند هذا الفن من خلال تفسيره قوله تعالى (بسم الله الرحمن الرحيم ، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)^{٨٣} إذ يرى أن البسمة إذا كانت أول سورة الفاتحة أم الحمد فهي غاية الحسن لأن مطلعها مفتتح باسم الله أو حمد الله والثناء عليه بما هو أهله ووصفه بماله من الصفات العليا وقد تكرر الافتتاح بالحمد في كثير من السور^{٨٤}.

ويفرق أبو حيان بين الاستعارة والتشبيه من خلال تفسيره لقوله تعالى (صُمُّ بُكْمٌ عُمِّي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ)^{٨٥} إذ يرد على من يقول أن هذه الآية تتضمن الاستعارة فهي عنده من التشبيه البليغ لأن المبتدأ هنا مضمرة تقديره هم المنافقون والاستعارة إنما تطلق حيث يطوى ذكر المستعار له ويجعل الكلام خلو عنه صالحاً ، لأن يراد به المنقول عنه المنقول إليه لولا دلالة الحال أو فحوى الكلام^{٨٦} ، وإذا كان قد فرق بين التشبيه البليغ والاستعارة فإن كلامه عن الاستعارة ناقص فهي لا تتحقق بطوي ذكر المستعار له فقط بل بطوي المستعار منه وذكر قرينة تدل عليه أيضاً ويكرر تفريقه بين الاستعارة والتشبيه في موضع آخر ويسمي الاستعارة مجازاً علاقته المشابهة في تفسيره لقوله تعالى (خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَهُمْ عَدَابٌ عَظِيمٌ)^{٨٧} فالآية حسب رأيه - فيها مجاز تشبيه إذ شبه قلوبهم لتأبيها عن الحق وأسماعهم لإضرابها عن سماع داعي الفلاح وأبصارهم لامتناعها عن تلمح نوره وهذا كله مجاز التشبيه إذ الختم والغشاوة لم يوجدوا حقيقة وهو بالاستعارة أولى إذ من شرط التشبيه ان يذكر المشبه والمشبه به^{٨٨} .

ويقف أبو حيان عند التشبيه التمثيلي في قوله تعالى (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ)^{٨٩} و يحدد هذا النوع من التشبيه بالوقوف عند دلالة المثل فيقول " المثل في أصل كلام العرب بمعنى المثل والمثيل كشبه وشبيه وهو النظير ويجمع المثل على أمثال وهو القول السائر الذي فيه غرابة من بعض الوجوه وقيل هو ذكر وصف ظاهر محسوس وغير محسوس يستدل به على وصف مشابه له من بعض الوجوه فيه نوع من الخفاء ليبيصر في الذهن مساوياً للأول في الظهور من وجه دون وجه والمقصود من ذكر المثل أنه يؤثر في القلوب ما لا يؤثره وصف الشيء نفسه لأن الغرض من ضرب المثل

تشبيه الخفي بالجلي والغائب بالشاهد فيتأكد من ماهيته بهيئته إذ شبه شأنهم ووصفهم بوصف المستوقد ناراً^{٩٠} ، ويذكر أن هذا النوع من التشبيه يتكرر في القرآن ، وهذا ما أكده الجرجاني الذي نص على أن هذا النوع لا يكثر إلا في كلام البلغاء^{٩١} ويطلق مصطلح المركب على التشبيه التمثيلي في بعض الأحيان كما في تفسيره لقوله تعالى (مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ) ^{٩٢} إذ يرى أنه تشبيه مركب شبه فيه الهيئة بالهيئة وهذه إشارة غير مباشرة إلى تعريف التشبيه التمثيلي أو المركب^{٩٣} ، وهنا يذكر رأي الزمخشري الذي يرى أنه شبه ما كانوا ينفقون من أموال في المكارم والمفاخر وكسب الثناء بين الناس لا يبعثون به وجه الله بالزرع الذي حسه البرد فصار حطاماً ، ويزيد من ذكر تفاصيل هذا التشبيه فيقول أنه تشبيه عقلي وهو الإنفاق بالحسي وهو الريح ، كما يرى أن هذا النوع من التشبيه في غاية البلاغة والإعجاز^{٩٤} .

ويحاول أبو حيان أن يفرق بين التشبيه المركب التمثيلي والتشبيه المتعدد ، فالأول يكون هيئة بهيئة كما في قول تعالى (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْرَبْ بِالْأَمْسِ) ^{٩٥} إذ شبه الدنيا في سرعة تقصيرها وانقراض نعيمها بعد الإقبال بحال نبات في جفافه وذهابه حطاماً بعدما التف وتكاثف وزين الأرض بخضرتها ورفيفه ، فالتشبيه هنا هيئة بهيئة^{٩٦} أما في قوله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَحْمَتِي أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) ^{٩٧} فبعد أن ذكر ما يؤول إليه الكفار من النار ذكر ما يؤول إليه المؤمنون من الجنة والفرقان هنا الكافر والمؤمن ولما كان تقدم ذكر الكفار أعقب بذكر المؤمنين جاء التمثيل هنا مبتدأ بالكافر فقال كالأعمى والأصم فيكون تشبيه اثنين باثنين ، إذ شبه الكفار والمؤمنين بالأعمى والبصير على التوالي وبالأصم والسميع على التوالي أيضا^{٩٨} .

ويتحدث أبو حيان عن الحقيقة والمجاز ويحاول أن يفرق بينهما بصورة غير مباشرة في تفسيره لقوله تعالى (وَلَا يَشْقَعُونَ وَاذِئْبِ إِلَّا كَيْبَ هُمْ لِيَجْزِيَ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) ^{٩٩} فيرى "أن لفظة (كتب) يمكن ان تكون حقيقة أي كتب في الصحائف أو اللوح المحفوظ ليجازى عليه يوم القيامة ويحتمل أن يكون استعارة عبرت عن الثبوت بالكتابة لأن من أراد أن يثبت شيئاً كتبه " ^{١٠٠} .

ومن الفنون البديعية التي التي يقترب من مفاهيمها ، الطباق المعنوي، في تفسيره لقوله تعالى (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِمُضْلِهِ)^{١٠١} إذ يقول أتى في الضر بلفظ المس وفي الخير بلفظ الإرادة وطابق بين الضر والخير مطابقة معنوية لا لفظية وهنا إشارة إلى أن من أقسام الطباق ، اللفظي والمعنوي لأن مقابل الضرالنفع ومقابل الخير الشر، فجاءت لفظة الضر أطف وأخص من لفظة الشر، وجاءت لفظة الخير أتم من لفظة النفع، ولفظة المس أوجز من لفظة الإرادة و أدل على الحصول في وقت الخطاب وفي غيره وأنسب للفظه الخير وإن كان المس والإرادة معناهما الإصابة^{١٠٢}

وقياساً للجهد البلاغي الكبير في تفسير البحر المحيط يكون هذا الاتجاه منه محدوداً إلى حد ما ويعكس عدم رغبة ابي حيان في الخوض في تحديد المصطلحات البلاغية.

التحليل البلاغي في تفسير البحر المحيط :

لم يخل تفسير ابي حيان من بعض التحليلات البلاغية التي قد تعكس تأثره بالزمخشري لاعتماده الواسع على آرائه البلاغية ، إذ وجدنا في بعض المواضع تحليلات شاملة يربط فيها بين الفنون البلاغية الموجودة في الآية، ويبين دورها جميعاً في إخراج المعنى المراد التعبير عنه بصورة مؤثرة لتستحوذ على اهتمام المخاطب وقد تحقق ذلك عندما مزج أبو حيان بين النحو والبلاغة على غرار ما فعله الجرجاني في نظرية النظم ، ففي هذه التحليلات يهتم بالمتلقي وعملية اختيار الألفاظ ، فضلاً عن السياق ودوره في تشكيل المعنى ، وقد كانت تحليلاته تبدأ بتحديد المصطلح البلاغي في الآية ومن ثم يشرع بتعليل اختيار المفردات وبيان الدلالة التي تكتسبها من السياق ، فضلاً عن الأخذ بنظر الاعتبار طبيعة المتلقي.

وقد حاول ابوحيان إيجاد مناسبة لترتيب بعض الآيات ومما يعكس نظريته للقرآن على أنه وحدة متكاملة ، وهذا ما نجده في تفسيره لقوله تعالى(حَتَّمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ ...) فهناك مناسبة لارتباط هذه الآية بما قبلها(سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرتهم فهم لا يؤمنون)^{١٠٣} فلما ذكر صفة من الكتاب له هدى وهم المنقون الجامعون للأوصاف المؤدية إلى الفوز ذكر صفة ضدهم وهم الكفار المحتوم لهم بالوفاة على الكفر وافتتح قصتهم بحرف التأكيد ليبدل على استئناف الكلام فيهم ، ولذلك لم يدخل في قصة المتقين لأن الحديث إنما جاء

فيهم بحكم الانجرار ، إذ الحديث إنما هو عن الكتاب ثم انجز ذكرهم في الأخبار عن الكتاب، وتأتي جملة الاعتراض (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) لتؤكد مضمون الجملة الأصلية الذي ينص على أن الذين كفروا لا يؤمنون ففي هذا التحليل يعلل ابوحيان استخدام بعض الأساليب مثل التوكيد والاعتراض أي الإطناب ، فضلاً عن ربط دلالة الآية بدلالة الآية التي سبقتها وبيان ما فيها من تناسب وترابط^{١٠٤} فهذا التحليل محاولة للوصول إلى سر الإعجاز الذي يراه الجرجاني في النظم^{١٠٥} وعلى الرغم من أن هذا التحليل بسيط إلا أنه مهم لأنه جاء في عصر غلبت على البلاغة التقسيمات المنطقية والشروحات التعليمية ،ومن المواضيع التي لمسنا فيها جهداً تحليلياً واضحاً كان يمكن تطويره لو كان هم المفسر بيان أسرار الإعجاز القرآني تفسيره قوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا)^{١٠٦} إذ يبدأ بتفسيره من عملية اختيار المفردات فيعلل اختيار البعوضة ويرى ان الاختيار جاء دلالة على التحقير الموجه لليهود، ويتجسد هذا التحقير في ضرب الأمثال بالعنكبوت والذباب والغراب والحجارة ايضاً، وينتقل بعد ذلك الى التمثيل ويعلل اختياره وتوظيفه في هذه الآية، اذ يرى أن من وظيفة التمثيل كشف المعنى وتوضيح المطلوب وإذا ما سمعه العاقل (المخاطب) استبان له به الحق وما زال الناس يضربون الأمثال بالبهائم والطيور والحشرات، ويواصل تحليله فيقف عند الأداة (إن) ومناسبتها للسياق لما تؤديه من توكيد كان ضرورياً للسياق الذي جاءت فيه الآية، ويرى أن الزيادة في الفعل (يستحي) تقيد الإغناء، وعلى عاداته يدخل في تحليلاته الآراء النحوية والإعرابات المختلفة ، مما يطبع تحليلاته بالاستطراد الذي لا يخدم المغزى البلاغي ، فيذكر اختلاف النحاة في الياء المحذوفة من الفعل " يستحيي " على لغة تميم عند بعض القراء ، ويعود مرة أخرى لهذا الفعل ويذكر له عدة دلالات في سياق الآية فمن هذه الدلالات الترك لأنه من ثمرات الحياء فيكون من باب تسمية المسبب بالسبب ، وكذلك الخشية لأنها من ثمرات الحياء أيضاً وقيل الامتناع ويرى أبو حيان ان هذه الدلالات متقاربة فكلها تؤدي الغرض، ويتوقف عند قوله (ما فوقها) ويرى ان القصد هنا ما فوقها وما دونها فاكتفى بأحد الشئيين عن الآخر لدلالة المعنى عليهما واستدل على هذا الرأي بقوله تعالى (سَرَابِيلٌ تَقِيكُمُ الْحَرَّ)^{١٠٧} وقصد الحر والبرد ، ويذكر تأويلاً آخر لقوله (ما فوق) ينص على أنه الفوقية بالصغر لأن المقصود من التمثيل

تحقير الأوثان وكلما كان المشبه به أصغر كان الاطلاع على أسراره صعب، فإذا كان في نهاية الصغر لم يحظ به إلا علم الله سبحانه فكان التمثيل به أقوى في الدلالة على كمال الحكمة من التمثيل بالكبير وعلى طريقة الجرجاني في إثبات الإعجاز والحسن في التعبير من خلال افتراضه التغيير بهذا العبير وعندها ينتقي الحسن وتنتفي الدقة من التعبير وهذا ما يتجسد في رأيه بأن المثل بالذباب والعنكبوت والبعوض، وما يجري مجراه جاء في غاية ما يكون من التمثيل وأحسن ما يكون من التشبيه لتقارب المشبه والمشبه به فلو شبههم بغير ذلك ما حسن موقع التشبيه ولا عذاب مذاق التمثيل إذ الشيء لا يشبه الا بما يماثله ويشاكله.^{١٠٨}

وفي باب الرؤية الشاملة في تحليله للآيات القرآنية والبحث في عملية الترابط والتناسب بينها نجد أباحيان يحلل قوله تعالى (الَّذِينَ يَبْذُرُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)^{١٠٩} فبعد أن يشير إلى الطباق الموجود في الآية السابقة (الضلالة لا الهداية) والطباق الموجود في هذا الآية (النقض × الميثاق) (القطع × الوصل) يعود للكلام عن التناسب بين الآيات التي تشكل في مجموعها بنية كلية متكاملة، وذلك من خلال وقوفه عند ترتيب الصلات (أي صلة الموصول) التي تتكرر من خلال العطف في غاية الحسن، لأنه بدأ أولاً بنقض العهد ، وهو أخص هذه الصفات ثم تثنى بقطع ما أمر الله بوصله وهو أعم من نقص العهد وغيره، ثم أتى بالإفساد وهو أعم من القطع وكلها ثمرات الفسق، وكان قد أتى باسم الفاعل صلة الألف واللام ليدل على ثبوتهم في هذه الصفة، فيكون وصف الفسق لهم ثابتاً وتكون النتائج عنه متكررة ، فيكون الذم لهم أبلغ لجمعهم بين ثبوت الأصل، وتجدد فروعه ونتائجه وذلك بقوله قبل هذه الآية (وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ)^{١١٠} وهذا الكلام يدل على وعي ابي حيان بضرورة النظر الى النص نظرة كلية شاملة تؤكد أن كل جزء منه يؤدي الى الآخر وإن جمال هذا الجزء كلمة كان أم تركيباً يأتي من خلال المجموع وهو السياق الذي يجمع بين الأجزاء^{١١١} ويتضح وعي أبي حيان بالسياق في المواضع التي يعتمد فيها علالتحليل البلاغي اكثر من غيره وهذا ما يجسده تحليله لقوله تعالى (وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكُمْ عُمِّي فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ)^{١١٢} ، فبعد إشارته الى ان هذه الآية تصور حال الكفار الذين أمروا باتباع ما انزل الله واعراضهم واتباع ملة آبائهم ، يفيد من آراء من سبقه وبشكل خاص الزمخشري ، فيقف عند الحذف الذي يفيد الايجاز في هذه

الآية فيرى أنه لا بد من مضاف محذوف تقديره ومثل داعي الذين كفروا كمثل الذي ينطق، والمعنى مثل داعيهم الى الإيمان كمثل الناقع بالبهائم ، أو مثلهم في دعائهم الأصنام كمثل الناقع بما لا يسمع ، ويرى الزمخشري أن قوله تعالى (إِلَّا دُعَاءَ وَبِدَاءِ) لا يساعد عليه الأصنام لأن الأصنام لا تسمع شيئاً والنعيق التصويت^{١١٣} ، ويذهب أبو حيان إلى أن الآراء المتعددة في هذا التشبيه تراعي فيه تشبيه مفرد بمفرد ومقابلة جزء من الكلام السابق بجزء من الكلام اللاحق (المشبه به) أما اذا ما عدنا هذا التشبيه تشبيه جملة بجملة فلا نحتاج الى مقابلة الألفاظ المفردة بل ينظر فيه إلى المعنى، وبذلك يكون التأويل الأقوى على حد تعبيره تشبيه قصة الكافرين في إعراضهم عن داعي لهم الى الحق بقصة الناقع^{١١٤} .

ومن المواضع التي يحسن فيها أبو حيان المزوجة بين النحر والبلاغة في تحليله ، تفسيره قوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ هُمْ الْجَنَّةَ يُعْتَابُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْقَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِّبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)^{١١٥} فيعد تقديم الأنفس على الأموال أشرف فالأنفس لا تعوض إذا فقدت ، وفي باب الاختيار يقف عند لفظة " اشْتَرَى " إذ يجدها لطيفة ومناسبة للمعنى الذي عبرت عنه وهي رغبة المشتري فيما اشتراه واغتنباطه به ، ويرى أبو حيان ان الاستفهام في قوله (وَمَنْ أَوْقَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ) قد زاد من قوة المعنى وهو التقرير بأن لا أحد أوفى من الله ويؤكد الوعد بعد ذلك بقوله (عَلَيْهِ حَقًّا) مما يجعل الوعد في قوله (فَاسْتَبْشِرُوا) وفيه يحدث انتقال من الغيبة إلى الخطاب يعلله بأن مواجهة الله تعالى لهم بالخطاب تشريف لهم وهنا تتجدد وظيفة وحكمة الالتفات، ويقف عند الفعل (استبشروا) فيرى أنه لا يفيد معنى استعمل للطلب بل معنى أفعَل ، أما جملة (الَّذِي بَايَعْتُمْ) فجاءت لتؤكد البيع السابق^{١١٦} وفي مثل هذا التحليل الذي نجده في مواضع أخرى من التفسير تتجلى أهمية البلاغة، وبشكل خاص التحليل البلاغي في الكشف عن أسرار الإعجاز القرآني في اختيار المفردات والتراكيب المناسبة فضلاً عن اختيار السياق الذي يزيد من فاعلية المفردات وبشكل المعنى بطريقة مؤثرة في السامع، ومثل هذه التحليلات تزيد من احتمالية تأثر أبي حيان بتحليلات الجرجاني بالرغم من قلة استشهاده به ، ومن التحليلات التي تعكس وعيا بلاغيا ناضجا تحليله قوله تعالى (وقيل يأرض ابلي ماءك ويا سماء اقلعي وغيض الماء واستوتت على الجودي وقيل بعداً للقوم

الظالمين)^{١١٧} إذ يقر الجرجاني بان الإعجاز راجع الى ارتباط الكلم بعضها ببعض ، فأى كلمة لو أفردت من سياقها لما أدت ما تؤديه في هذا السياق ، ويقف عند نداء الأرض بما هو شأنها واتباع نداء السماء بما يخصها ومجيء الفعل غيبض على وزن فعل الدال على أنه لم يغض إلا بأمر أمر ثم تأكيد ذلك بقوله (وقضى الأمر) ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور وهو (استوت على الجودي) ثم إضمار السفينة قبل الذكر كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن ثم مقابلة قيل في الخاتمة بقيل في الفاتحة ، وكل هذه الخصائص تدل على الأعجاز^{١١٨} ويأخذ هذا التحليل الزمخشري في تفسيره^{١١٩} وينقله عنه أبو حيان أيضا^{١٢٠} ومن الملاحظ على تحليلات أبي حيان أن معظمها كان في المواضع التي يرد فيها تشبيه تمثيلي، وهذا النوع هو أكثر التشبيهات توظيفا في القرآن ومن هذه التشبيهات قوله تعالى (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَاهُمْ كَسْرَابٍ بِقَيْعَةٍ يُحْسِبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ يَجِدُهُ شَيْئًا وَّوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ) (أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَعْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ)^{١٢١} إذ يرى أبو حيان أن هذه الآية التي يذكر فيها الله حال الكفرة وأعمالهم تقابل الآيات التي يذكر فيها حال الإيمان والمؤمنين وتنويره قلوبهم وقد ذكر صورتين أحدهما لأعمالهم في الآخرة، أو مثل لهم بمثلين أحدهما يقضي بطلان أعمالهم في الآخرة وأنهم لا ينتفعون بها والثاني يقتضي ثمرتها بسراب في مكان منخفض ظنه العطشان ماء فقصده وأتعب نفسه في الوصول اليه حتى إذا جاء موضعه الذي تخيله لم يجده شيئا وهذا هو حال الكافر يظن عمله في الدنيا نافعه حتى إذا جاءت الآخرة لم ينفعه بل صار وبالاً عليه وهذه هي الصورة الأولى، ويورد هنا كلام ابن عطية الذي يرى ان الكلام فيه حذف عدة جمل فأصل الكلام وكذلك الكافر يوم القيامة يظن عمله نافعاً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ويفسر هذا الإيجاز بالحذف، فالمثل فيه ايجاز واقتضاب لوضوح المعنى المراد به ويصف الكلام الموجود في الصورة الأولى بانه متناسق أخذ بعضه بعنق بعض وذلك باتصال الضمائر لشيء واحد كما ان التشبيه مطابق لأعمالهم من حيث انهم اعتقدوها نافعة فلم تنفعهم وحصل لهم الهلاك ، وتأتي الصورة الثانية لأعمالهم (كظلمات) لتصوير ما هم عليه في حال الدنيا ، ويرى أبو حيان أنه بدأ بالأول لأنه أكد في الأخبار لما فيه من ذكر ما يؤول اليه أمرهم من العقاب الدائم ثم اتبعه بهذا التمثيل الذي نبههم على ما هي أعمالهم

عليه لعلهم يرجعون إلى الإيمان والظاهر أنه تشبيه لأعمالهم وضلالهم بالظلمات المتكاثفة، ويستشهد هنا برأي الجرجاني الذي يرى أن الآية الأولى في ذكر أعمال الكفار والثانية في ذكر كفرهم ونسق الكفر على أعمالهم لان الكفر أيضا من أعمالهم وقد قال الله تعالى يخرجهم من الظلمات إلى النور من الكفر إلى الإيمان قد يكون التمثيل قد وقع لأعمالهم بكفر الكافر وأعمالهم منها كفرهم فيكون قد شبه أعمالهم بالظلمات^{١٢٢}.

ومن التحليلات البلاغية الأخرى التي يقود فيها أبو حيان القارئ إلى مواطن الإعجاز القرآني تحليله قوله تعالى (أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ)^{١٢٣} فيرى أن قوله (أو كصيب) معطوف على قوله (ممثلهم كمثل الذي استوقد ناراً)^{١٢٤} ويأتي التمثيل في هذه الآية ليكشف حالهم بعد الكشف الأول، والتفصيل هنا مقصود للإسهاب بحال المنافق، فيشبهه في الأول بحال المستوقد النار من خلال إظهاره الإيمان بالإضاءة وانقطاع جدواه بذهاب النور، وشبه في الثاني الدين الإسلامي بالصيب وما فيه من الوعد والوعيد بالرعد والبرق، وما يصيبهم من الإفزاز والفتن من جهة المسلمين بالصواعق وكلا التمثيلين من التمثيلات المركبة، إذ القصد من هذين التشبيهين في رأيه وصف وقوع المنافقين في ضلالاتهم وما خبطوا فيه من الحيرة والدهشة بما يكابد من طفنت ناره بعد إيقادها في ظلمة الليل وبحال من أخذته السماء في ليلة مظلمة مع رعد وبرق وخوف من الصواعق، وإنما قدر كمثل ذوي صيب لعودة الضمير في يجعلون ويرى أبو حيان أن التمثيل الثاني أبلغ لأنه أدل على فرط الحيرة والدهشة وشدة الأمر^{١٢٥} واختياره الصيغة أبلغ غير دقيقة لأن بلاغة القرآن واحدة فلا يوجد فيه كلام أبلغ من كلام فكل كلام له سياقه الذي يرد فيه ومعنى يعبر عنه ويمكن أن يقول ابلغ ما يمكن قوله في هذا المعنى أما قوله (الثاني ابلغ) فإن ذلك يعني أنه أبلغ من الأول وهذا غير وارد.

ومما يؤكد وعي أبي حيان بضرورة التحليل وأهميته تأكيده أن فهم القرآن وتدقيق عباراته والكشف عن أسرار إعجاز وجماله ليس بالأمر السهل، إذ يجب التوغل في اللسان العربي أي اللغة من جميع جوانبها والإحاطة بعلم الأدب لأنه المعين في فهم لغة القرآن وأساليبه وصوره والإلمام بفنون الكلام أي صنعته الكلام

العفوية الخالية من التكلف، أي كيفية صياغة المعنى بالطريقة التي تجعله مؤثراً في السامع أما من عدم ذلك فلا يمكن أن يتذوق كلام الله وأن يستحسن جمال تعبيره ويقترّب من أسرار إعجازه^{١٢٦}.

الخاتمة

لما كانت البلاغة من سمات الإعجاز القرآني ولما كان من وظائف التفسير الكشف عن المعاني وبيان خصائص الأسلوب، فلا بد أن يكون الجهد البلاغي في التفاسير حاضراً، ولكن هذا الحضور يتفاوت، بحسب اهتمام المفسر، وكلما كان اهتمامه قريباً من البلاغة كان الجهد البلاغي متميزاً و كبيراً وهذا ما وجدناه في تفسير البحر المحيط، فعلى الرغم من أن الجهد البلاغي جاء من حيث الأهمية بعد الجهد النحوي والجهد الخاص بالقراءات إلا أنه بقي كبيراً ويستحق الدراسة والتحليل، وقد يعود السبب في ذلك إلى اعتماد أبي حيان بشكل كبير على الزمخشري الذي تميز تفسيره بالبلاغة، ومن خلال دراستنا للبلاغة في تفسير البحر المحيط توصلنا إلى بعض النتائج التي يمكن إجمالها بالآتي:-

أولاً: يمكن تمييز اتجاهين رئيسيين في الجهد البلاغي في البحر المحيط، يقوم الأول منها على ذكر المصطلح بشكل مطلق مرة، وذكره مع بيان مفهومه وأقسامه مرة أخرى، بينما يقوم الاتجاه الثاني على التحليل أي تحليل

الآيات ممن جميع النواحي، فيقف عند اختيار المفردة واختيار السياق المناسب لها فضلاً عن طريقة تشكيل المعنى وبشكل خاص توظيف الأساليب المجازية.

ثانياً: عدم تطابق المصطلح مع الآية في بعض الأحيان وهذا ما وجدناه في إشارته للسجع المتوازي في سورة الفاتحة ، التي خلت منه فضلاً عن إشارته إلى أن السجع كان مقصوداً في بعض مواضع القرآن وهذا لا يمكن التسليم به فالقصد المعنى والسجع يأتي خدمة له.

ثالثاً: لا بد من الإشارة إلى أن هذا البحث قد حاول تحليل الجهد البلاغي بشكل عام ولكبر الجهد نرى انه يستحق دراسة واسعة ومفصلة، وهذا ما سنقوم به مستقبلاً إن شاء الله.

الهوامش

(١) التفسير والمفسرون . د . محمد حسين الذهبي، دار الكتب الحديثة ، القاهرة، ١٩٦١ ج ١ ص ٣١٧

(٢) التفسير والمفسرون ج ١ ص ٣١٧

(٣) التفسير والمفسرون . د . محمد حسين الذهبي ج ١ ص ٣١٧

(٤) الدر اللقيط من البحر المحيط تاج الدين بن مكتوم القيسي بهامش البحر المحيط.

(٥) التفسير والمفسرون . د . محمد حسين الذهبي ج ١ ص ٣١٨

(٦) البحر المحيط، أبو حيان الاندلسي ، دار احياء التراث العربي بيروت ط ٢ ١٩٩٠ ص ٥٤

(٧) المصدر نفسه ج ١ ص ٥٠

(٨) المصدر نفسه ج ١ ص ٥٠

(٩) دلائل الإعجاز ، عبد القادر الجرجاني ، تحقيق محمد رشيد رضا ، دار المعرفة ، ١٩٨٢ ص ٣٠٠.

(١٠) مفتاح العلوم ، أبو يعقوب السكاكي القاهرة ١٩٣٧ ص ٧١.

١١ الفاتحة : ٥

١٢ البحر المحيط ج ١ ص ٢٣.

١٣ ينظر : مفتاح العلوم ص ١٨٠ والتخليص ، الخطيب القزويني تحقيق جعفر البرقوقي ط ٢ ، القاهرة ١٩٣٢ ص ٣١٥.

١٤ ال عمران : ١٣٧

١٥ ينظر : البحر المحيط ج ٣ ص ٦٤.

١٦ التوبة ١١٨.

١٧ ينظر : البحر المحيط ج ٣ ص ٣٣٧

- ١٨ ينظر حلية المحاضرة في صناعة الشعر ، أبو علي الحاتمي ، تحقيق جعفر الكنابي ، بغداد ١٩٧٩ ج ١ ص ١٣٦ .
- ١٩ ينظر اعجاز القرآن الباقلائي تحقيق أحمد صقر ، دار المعارف القاهرة ص ١٠٧
- ٢٠ البقرة: ٧
- ٢١ ينظر البحر المحيط ج ١ ص ٤٨
- ٢٢ ال عمران : ١٢٧
- ٢٣ ينظر البحر المحيط ج ٣ ص ٥٥
- ٢٤ (يونس : ٢٤
- ٢٥ ينظر البحر المحيط ج ٥ ص ١٤٤
- ٢٦ (الفاتحة: ٢
- ٢٧ البقرة: ٢
- ٢٨ التغابن: ٨
- ٢٩ ينظر: البحر المحيط ج ١ ص ٣٣
- ٣٠ البقرة: ٤٤
- ٣١ ينظر: البحر المحيط ج ١ ص ١٨٣
- ٣٢ النساء: ٤١
- ٣٣ ينظر البحر المحيط: ج ٣ ص ٢٩٧
- ٣٤ البقرة: ٧٩
- ٣٥ ينظر البحر المحيط ج ١ ص ٢٧٧
- ٣٦ ينظر : الايضاح الخطيب القزويني تحقيق مجموعة من علماء الازهر، القاهرة ص ٢٠٦ وينظر المطول ، سعد الدين التفتازاني، تركيا ١٣٣٠ هـ
- ٣٧ النساء ٤٥
- ٣٨ ينظر :جواهر البلاغة ، أحمد الهاشمي تحقيق محمد التونجي ،مؤسسة المعارف بيروت ، ط١ ، ١٩٩٠، ص ٢٥٠.
- ٣٩ الفاتحة ٦ - ٧
- ٤٠ ينظر البحر المحيط ج ١ / ٣١
- ٤١ ينظر دلائل الإعجاز ص ١٧٠
- ٤٢ ال عمران ١١٣ - ١١٤
- ٤٣ ينظر البحر المحيط ج ٣ ص ٤٣
- ٤٤ الفاتحة ٧
- ٤٥ ينظر البحر المحيط ج ١ ص ٣١
- ٤٦ النمل ٤٠
- ٤٧ ينظر البحر المحيط ج ٧ ص ٧٧
- ٤٨ مريم ٤٥
- ٤٩ ينظر البحر المحيط ج ٦ ص ١٩٤
- ٥٠ مجمع البيان في تفسير القرآن ، ابو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، دار احياء التراث ، بيروت ، لبنان ، ١٩٦٠، ج ٣ ص ٥١٦ .
- ٥١ مريم: ٤٦
- ٥٢ ينظر : البحر المحيط ج ٦ ص ١٩٥
- ٥٣ ينظر :التفسير البياني للقرآن الكريم ، د. عائشة عبد الرحمن ، دار المعارف ، مصر ط ٥ ، ١٩٩٠، ج ٢ ص ٢٧ .
- ٥٤ البقرة: ٥٨
- ٥٥ ينظر : البحر المحيط ج ١ ص ٢٢١
- ٥٦ ينظر مجمع البيان الطبرسي ج ١ ص ١١٧

- ٥٧ البقرة ٧
- ٥٨ البقرة ١٧
- ٥٩ ينظر البحر المحيط ج ١ ص ٨١
- ٦٠ ال عمران ١١٤
- ٦١ ينظر البحر المحيط ج ٣ ص ٤٣
- ٦٢ ال عمران ١٦١
- ٦٣ ينظر البحر المحيط ج ٣ ص ١٠٢
- ٦٤ ينظر البديع في نقد الشعر اسامة بن منقذ تحقيق احمد بدوي القاهرة ١٩٦٠ ص ١٤ وينظر التلخيص ص ٣٣٨
- ٦٥ ال عمران ١٥٣
- ٦٦ ينظر: البحر المحيط ج ٣ ص ٩٩
- ٦٧ ينظر مجمع البيان الطبرسي ج ١ ص ٥٢١
- ٦٨ ال عمران ١٥٩
- ٦٩ ينظر: البحر المحيط ج ٣ ص ٩٩
- ٧٠ ال عمران ١٥٣
- ٧١ ينظر: البحر المحيط ج ٣ ص ٩٩
- ٧٢ النساء ٥٥
- ٧٣ ينظر: البحر المحيط ج ٣ ص ٢٧٣
- ٧٤ البقرة ٧٤
- ٧٥ يونس ٤٠
- ٧٦ ينظر: البحر المحيط ج ٥ ص ١٦٠
- ٧٧ البقرة ٨٩
- ٧٨ ينظر: البحر المحيط ج ١ ص ٣٠٤
- ٧٩ ال عمران ١٨٣
- ٨٠ ينظر كتاب الصناعتين ، أبو جلال العسكري تحقيق علي محمد الجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم القاهرة ١٩٥٢ ص ٤١٠ والبديع ص ٢٥٣ والتلخيص ص ٣٤٧
- ٨١ ينظر البحر المحيط ج ١ ص ٤
- ٨٢ ينظر: البحر المحيط ج ١ ص ٣١
- ٨٣ الفاتحة ٢
- ٨٤ ينظر: البحر المحيط ج ١ ص ٣١
- ٨٥ البقرة ١٨
- ٨٦ ينظر: البحر المحيط ج ١ ص ٨١
- ٨٧ البقرة ٧
- ٨٨ ينظر البحر المحيط ج ١ ص ٥١
- ٨٩ البقرة ١٧
- ٩٠ ينظر: البحر المحيط ج ١ ص ٧٤
- ٩١ ينظر اسرار البلاغة ، عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق هـ ، ريتز . استابول ١٩٥٤ ص ٩٣
- ٩٢ آل عمران ١١٧
- ٩٣ ينظر: اسرار البلاغة ص ٧٤ ، اذ يحدد الجرجاني التشبيه التمثيلي بأنه التشبيه الذي يكون فيه وجه الشبه صورة منتزعة.
- ٩٤ ينظر البحر المحيط ج ٣ ص ٣٧

- ٩٥ يونس ٢٤
- ٩٦ ينظر: البحر المحيط ج ٥ ص ١٤٢
- ٩٧ هود ٢٣ - ٢٤
- ٩٨ ينظر البحر المحيط ج ٥ ص ٢١٣
- ٩٩ التوبة ١٢١
- ١٠٠ ينظر البحر المحيط ج ٥ ص ١٢٣
- ١٠١ يونس ١٠٧
- ١٠٢ ينظر البحر المحيط ج ٥ ص ١٩٦
- ١٠٣ البقرة ٦
- ١٠٤ ينظر البحر المحيط ج ١ ص ٤٦
- ١٠٥ ينظر دلائل الإعجاز ص ٢٩٥ وما بعدها
- ١٠٦ البقرة ٢٦
- ١٠٧ النحل ٨١
- ١٠٨ ينظر البحر المحيط ج ١ ص ١٢٤ - ١٢٦
- ١٠٩ البقرة ٢٧
- ١١٠ البقرة ٢٦
- ١١١ ينظر البحر المحيط ج ١ ص ١٢٩
- ١١٢ البقرة ١٧١
- ١١٣ الكشاف، جار الله الزمخشري بحقيق عادل عبد الموجود و علي محمد معوض، مكتبة العبيد كان السعودية ط ١٩٩٨ ح ١ ص ٤٨٤
- ١١٤ ينظر البحر المحيط ج ١ ص ٤٨٤
- ١١٥ التوبة ١١١
- ١١٦ ينظر البحر المحيط ج ٥ ص ١٠٣
- ١١٧ هود ٤٤
- ١١٨ ينظر دلائل الإعجاز ص ٣٦
- ١١٩ ينظر الكشاف ج ١ ص ٢٠٢-٢٠٣
- ١٢٠ ينظر البحر المحيط ج ٥ ص ٢٢٨
- ١٢١ النور ٣٩-٤٠
- ١٢٢ ينظر البحر المحيط ج ٦ ص ٤٦٢
- ١٢٣ البقرة ١٩
- ١٢٤ البقرة ١٧
- ١٢٥ ينظر البحر المحيط ج ١ ص ٨٤
- ١٢٦ ينظر البحر المحيط ج ١ ص ١٣٣

المصادر و المراجع

القرآن الكريم

الإتقان في علوم القرآن جلال الدين السيوطي. القاهرة ١٣٦٨ هـ.

- أسرار البلاغة. عبد القاهر الجرجاني تحقيق هريثر. استنبول ١٩٥٤
- إعجاز القرآن. ابو بكر محمد بن الطيب الباقلائي تحقيق أحمد صقر. دار المعارف. القاهرة.
- الإيضاح. الخطيب القزويني تحقيق مجموعة من علماء الازهر. القاهرة.
- البحر المحيط، ابو حيان الأندلسي، دار إحياء التراث العربي. بيروت ط٢ ١٩٩٠
- البديع في نقد الشعر، أسامة بن منقذ، تحقيق د. أحمد أحمد بدوي القاهرة ١٩٦٠
- التفسير البياني للقرآن الكريم، د. عائشة عبد الرحمن، دار المعارف، مصر، ط٥، ١٩٩٠
- التفسير و المفسرون محمد حسين الذهبي، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٩٦١.
- التلخيص في علوم البلاغة الخطيب القزويني تحقيق عبد الرحمن البرقوقي ط٢ القاهرة ١٩٣٢
- حلية المحاضرة في صناعة الشعر، أبو علي الحاتمي، تحقيق د. جعفر الكتابي، بغداد ١٩٧٩
- الدر اللقيط من البحر المحيط، تاج الدين بن مكتوم القيسي، على هامش البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي دار إحياء التراث العربي، بيروت ط٢ ١٩٩٠
- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني تحقيق محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت ١٩٨٢.
- كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري، تحقيق علي محمد البجاوي و محمد أبو الفضل إبراهيم القاهرة ١٩٥٢.
- الكشاف جار الله الزمخشري، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود و علي محمد معوض، مكتبة العبيكان، السعودية ط ١٩٩٨ - ٣٠-٠٤ المطول: سعد الدين التفتازاني، تركيا ١٣٣٠هـ.
- مجمع البيان في تفسير القرآن، ابو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، دار احياء التراث، بيروت، ١٩٦٠.
- المطول، سعد الدين التفتازاني، تركيا ١٣٣٠ هـ
- مفتاح العلوم أبو يعقوب الكاكي القاهرة ١٩٣٧
- المنزح البديع في تجنيس أساليب البديع أبو محمد السجلماسي تحقيق علال الفاسي، الرباط المغرب ١٩٨٠.
- النهر الماد من البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي على هامش البحر المحيط، دار إحياء التراث العربي، بيروت ط٢ ١٩٩٠.